قصة

جناية الآباء

ترافع المحامى عن المتهم بما أوتى من فصاحة لسان وقوة برهان وخلت المحكمة للمداولة ثم خرجت من غرفة المشورة وأعلنت حكمها القاضى باحالة الأوراق إلى مفتى الديار. ومعنى ذلك كما لا يخفى الحكم على المتهم بالأعدام فضج الحاضرون وقد أخذتهم نشوة الطرب. كأن غريزة المرء الحيوانية الكامنة تحت ستار المدنية الرقيق لا يلذ لها غير القتل وسفك الدماء. ولا يثير شعورها الا المظالم والمغارم التى ينزلها الانسان بأخيه الانسان.

وخرج الجند بالمحكوم عليه وهو أصفر الوجه جاحظ العينين ينظر ولا يرى ويتطلع ولا يبصر. وكان يسير مدفوعا بغلظه الحراس وفظاظتهم. فهذا يدفعه وذاك يلكمه. وآخر يجره وغيره يلكزه. وهو مستسلم لهم لا يبدي مدافعة أو ممانعة كأنه قد فقد الحس والشعور. والناس يبتعدون عنه ويفرون من طريقه كأنه وحش ضار يخشون على أنفسهم منه.

وكان المتهم فتى فى ربيع الحياة وميعة العمر. طويل القامة نحيل الجسم وسيم المحيا لولا ما انطبع عليه من مقت وكره للانسانية التى نبذته وآذته. مما جعل أساريره جامدة يابسة لا تنم عن عطف ولا تشف عن حنان. فوقف على باب المحكمة الخارجى وقد أنعشته نسمات الشتاء الباردة فاستنشق الهواء بملء رئتيه وتطلع فيما حوله علّه يرى نظرا حبيباً أو بصراً شفيقاً يحنو عليه ويعطف. فلم يبصر غير عيون تحدق فيه بحنق وذعر. فرفع بصره إلى السماء كأنه يستشهد الله المطلع على دفائن القلوب وخفايا الصدور. ثم نظر أمامه وما لبث أن عرته رعشة شديدة اهتز لها كل جسمه. ووقف برهة محملق العينين يتطلع إلى صبية أمامه يتراوح سنهم بين الخامسة والتاسعة وهم يتزاحمون حول صندوق القازورات والنفايات ويتدافعون لالتقاط ما يجدونه فيه من قشرة برتقال أو عظمة عليها مسحة من اللحم أو كسرة خبز علتها الأوساخ والأدران ويتلقمونها بشراهة ويلوكونها بشهية ويزدردونها بلذة وارتياح

كأنهم يأكلون أطايب الطعام و يتذوقون لذيذ المأكل وشهيها

و كانوا يزاحمون الهررة و الكلاب و يسلبونها ماعثرت عليه من نفايات المأكول و هم يصخبون و يضحكون رغم ما بهم من جوع ومسغبة . وما هم فيه من ضنك وبؤس.

و كانوا عراة الرءوس حفاة الاقدام لايستر أجسامهم من قر الشتاء وبرده غير ثياب ممزقة بالية تكاد لاتكفي لمداراة عوراتهم . وكانت وجوههم ذابلة ليس فيها أثر من نضارة الطفولة . يعلوها شحوب واصفرار و يتخللها أخاديد من القذارة و الوساخة . و أعينهم مطفأة البصيص لاتنم عن ذكاء ولا فهم كأنها أعين حيوانات دنية ، وأجسادهم نضيضة اللحم لم يبق الطوى منها غير جلد على عظم .

وقف المحكوم عليه يتأمل هذا المنظر المتجلي أمامه وهو شارد الفكر ذاهل العقل حتى أخرجته من سباته لكمة شديدة من يد جندي وقعت على م رأسه فلم يبال بها لاعتياده على مثل هذه المعاملة من جميع حراسه . بل رفع يديه المصفدتين ومسح بظهر كفه دمعة ترقرقت فى عينه ثم لوى بصره عن الصبيان وسار متبوعا بالجند وسائر المحبوسين .

و كان الى جانبه سجين قد تمرست نفسه بالاجرام وارتاضت على أنواع المنكر وضروب الآثام ، حتى صلدت عواطفه و تحجرت مشاعره فانذهل عند مارآه يبكي وظن ان دمعه ينساب حزنا على غصن حياته الذى سيصهر يافعاً . فهمس فى أذنه مشجعا اياه : « جد قلبك يامحمد . السجن مأوى الرجال . والمشنقة مرجيحة الابطال » . فاجابه المحكوم عليه بالاعدام وقد خنق التأثر صوته : سيان عندى حياتى أو مماتى . فقد أشجتنى ذكرى مرت بخاطرى فاعادت الى ذهنى أيام طفولتى بمرارتها وعلقمها . وسأقص عليك ما كابدته فى حياتى القصيرة من التعس والشقاء عند ماتركب العربة التى ستقلنا الى السجن . لتعيه من بعدي وتسرده للناس فيكون شهادة طقة بجناية الوالدين وظلم الانسانية .

ولما أخذ السجناء أمكنتهم فى عربة السجن لبث محمد برهة مستغرقا فى أفكاره يجمع شتيتها ثم زفر زفرة خرجت من أعماق قلبه واستتلى حديثه قائلا : ما أتعس الطفل الذى يشب بعيداً عن حنو أمه وعطف أبيه . وما أشقاه إذا أسلمته المقادير الى ايدى ظلمة عتاة يسومونه الذل ويحملونه الهوان ويرهقونه بالمظالم والمغارم وهو لم يزل بعد لدن العود رطبه لا يقوى على احتمال ما يثقل كاهله من جور ينوء تحته أشد الرجال وأقواهم .

فقد شاءت صروف الدهر ان لا يعى ذهنى حالما بدأ بالشعور إلا التعاسة والشقاء . ففتحت عينى فى هذا الوجود وأنا لم أستكمل الخامسة من عمرى فلم أر لوالدى أثرا . بل وجدت نفسى عند امرأة شرسة الطباع شكسة الخلق . لا قلب لها يرق ولا فؤاد يرحم . فقد طلق أبى أمى وهى حامل بى وذهب الى حيث لا يدرى أحد مكانه . ولم يكد ناظري يكتحل بنور هذه الحياة حتى تزوجت والدتى بغيره . فكنت حجر عثرة فى سبيل هنائها . لان زوجها لم يكن يطيق رؤيتى فكان يسيء الى ويضربنى . وأمى تدافع عنى جهد طاقتها حتى خيرها بين تركها لى أو تركه لها . ففضلت الانفصال عنى وسلمتنى الى هذه المرأة العجوز لتقوم بتربيتى لقاء أجرة معينة تأخذها شهرياً . وأنا لم أزل بعد في الثانية من عمري . وما هى إلا شهور قلائل حتى غابت أمى عن نظري وتركتنى بين يدي هذه العجوز التى لما رأت انقطاع الاجرة عنها طفقت تعاملنى اسوأ معاملة وتضربنى ضرباً اليماً ولا تطعمنى فى النهار كله الا كسرة خبز يابسة تكاد لا تكفى للابقاء على . ولا تكسونى الا بقطع عتيقة من بقايا ثيابها الخلقة . تلفعها كيفما اتفق وتحلها على جسمى الهزيل . فكانت لا تمنع عربى ولا تسترعورتى . ولا تقينى حرارة الصيف ولا صبارة الشتاء .

ولما قوى ساقاي على حملى علمتنى التسول وجمع اعقاب السجائر وبيعها . ودربتنى على نشل ما تقع عليه يدي . وكانت تسرحنى صباحاً مشيعة اياى بالضرب وطالبة منى ان أعود اليها مساء وبيدى لا اقل من ربع ريال . والويل لى اذا رجعت ولم استتم هذا المبلغ . فاقل ما يصيبنى منها الضرب بالعصا على جسمى الضعيف العاري حتى تخد فيه آثارا دامية . فيغمى على من الالم فتلقينى

فى ركن غرفتها السوداء بعد ما تأخذ منى النقود التى جمعتها وتجلس على فراشها وبيدها العصا تتطلع الي كما يتطلع الوحش الضارى الى فريسته المضرجة بالدماء معتزمة معاودة الكرة اذا افقت من غيبوبتى .

فكنت البث الساعات وانا فى غشيتى حتى اذا عاد الى صوابى اتطلع اليها بطرف خفي فأذا رأيتها تترقبنى ظللت فى مكانى لاتحرك حتى يغلب على النعاس والتعب والالم فانام متوسداً الارض الرطبه نوما متقطعا يتخلله الفزع والهلع والهواجس والوساوس .

وعندما يتنفس الفجر توقظنى بالرفس واللكم. وتلقى الى بكسرة الخبز كما تلقيها الى كلب وتشيعنى بالتهديد والوعيد فاسير لمزاولة عملى وأنا فى حالة يتقطع لها القلب من الضعف والهزال والجوع والعري . حتى إذا كان ذات يوم وقد خرجت عند زر السحر أتطلب ما أسد به جشعها دفعاً لأذاها، متأبطاً قطعة الخبز اليابسة ومتزملا ببقايا ثياب لم تترك الايام منها غير مزق تتدلى على جسدى فيبدو منها صدري الهزيل الذي تعد أضلاعه عداً . ويظهر من تحتها ذراعاي الرفيعان الملتصق جلدها بعظمهما . وساقاي الدقيقان اللذان يحملانى مترنحين. مررت بقصر منيف تحيط به حديقة غناء . فى مدخلها قبالة السلم الرخامى كشك صغير من الخشب فيه كلب ضخم الجثة هائل المنظر مربوط بجنزير وقد انحدر عبد اسود حاملا طبقا فيه لبن مغلى يتصاعد منه البخار . فوضعه امامه وقفل راجعاً . فغمس الكلب فيه منخره وربض مكانه .

وكان الوقت شتاء والطقس باردا زمهريراً يقضقض من قره الجسم المدثر بالفراء ووثير الثياب فكيف بالعارى مثل جسمى الذي لا يستره غير أطمار بالية . فتطلعت إلى طبق اللبن وقد جحظت عيناى واندلع لسانى وجرى لعابى فى فمى رغماً عن يبس حلقى الذى لم يذق فى حياته لبن طعماً . فطاش عقلى وفقدت وعيي وانسللت من باب الحديقة المفتوح واسرعت الى الطبق فهجم على الكلب الكاسر وانشب انيابه فى كتفى العاري . فلم اعبأ بالالم من فرط الجوع والبرد وجثوت على ركبتى ورفعت الصحن الى فمى وتجرعت منه جرعات كبيرة رغماً عن سخوته . فلما رأى الكلب لهفتى وجوعى

فطن بغريزته الحيوانية الى حالتى البائسة فتخللت الرحمة قلبه وارتد عنى وأقعى على ذنبه وأخذ يبصبص لى به و يتطلع إلى بعطف وحنان بعينيه الصغيرتين المملوءتين ذكاء . كأنه يقول لى : اشرب لاخوف عليك فانت أحوج من سواك إلى مايدفؤك و يقوتك .

وكأنى بالحيوان الاعجم أرق قلبا من الانسان . فبينما أنا مقبل بكليتى على اللبن أتجرعه بشراهة لأدفع به عن جسمى البرد الذى كان يهرؤه سمعت من ورائى صوتاً يصيح « أيها اللص » وشعرت بضربة سوط شديدة وقعت على أم رأسى فاندلق اللبن من يدي وسقطت على الارض وأنا اتلوى من شدة الالم والدم يتدفق بغزارة من جرحى .

وكان الضارب شابا فى ريعان العمر ومقتبل الحياة . انيق الملبس يتدثر بمعطف ثمين تحته بزة افرنكية من غالى النسيج و فى يده قفاز من الجلد . وقد قبض على سوط مدبب الرأس . فانحنى فوقى وصاح بى « أتسرق أيها الوغد وأنت في هذه السن ؟ وهم بضربى ثانية . لكن الكلب الذى أنف من هذا الظلم هرأ هريرا قوياً وهجم على صاحبه مكشرا عن أنيابه وحال بينى و بينه . فصاح الشاب مغضباً : و يحك يابوبى أتهر على ؟ لكن الكلب لم يبال به بل مال على وأخذ يلحس جرحى كانه يؤاسينى مستغفرا عن الجور الذى ألحقه بى سيده . فنادى الشاب خدمه فلبوه افواجاً . فامرهم بطرحى خارجاً فحملونى من يدى و رجلى والقونى فى الشارع وأغلقوا الباب . فلزمت مكانى دون أن أجد فى نفسى قوة على مبارحته . وكان النزيف قد انقطع لكن ألم الجرح مازال شديدا فاسندت رأسى إلى جدار الحديقة وأغمضت عينى ملتمساً الراحة مما أعانيه .

وكانت الشمس قد بدأت تشرق وأشعتها الشاحبة تنسل من بين السحب الغائمة المغطية وجه السماء فشعرت بدفء خفيف تحت لعابها واستسلمت للكرى .

وما هى إلا برهة حتى أيقظتنى من سباتى رفسة عنيفة من حذاء ثقيل اهترلها كل جسمى . فافقت مذعورا فالفيت عسكرى الدورية واقفاً ينتهرنى بالسباب والشتائم طالباً منى السير . فصدعت للامر ونهضت متحاملا على نفسى ومشيت مترنحا وأنا أعتمد الجدران بيدى لكى لا أهوى إلى الارض فمررت بصيدلية

التمست من صاحبها الاعتناء بجرحي الذي كان يؤلمني أشد الالم فانتهرني وطردني فعاودت سيري وأنا أدلف وقد حبست نفسي عن الجزع لاستمد من عزيمتي قوة تساعدني على السير حتى أصل إلى مكان قفر آوي اليه . فابصرت على مدى قريب منزلا متهدما قد زال سقفه وبقيت جدرانه . فهرولت اليه بقدر ما تسمح لي به حالتي . وانسللت بين أطلاله حتى أصبت ركناً قد انارته أشعة الشمس الشاحبة . فسكنت اليه وتمددت على أرضه وأنا أتداخل في بعضي والتف باطماري طلبا للدفء . وما لبث الكرى ان ران على أجفاني فاستسلمت الى النوم لعلي أجد فيه مخففاً لآلامي وأوصابي .

وماهو الا من وجيز حتى افقت مذعورا على تساقط المطر . فوجدت السماء قد اعتكر لونها و فاضت مياز يبها . فنهضت وقد ابتلت اطماري والتصقت بجسمي . فاسرعت في السير و أنا أشتد في عدوي باحثاً عن ملجاء يقيني عادية الماء الذي كان ينهمر فوقي بغزارة . فالتجأت الى طنف يبرز من عمارة فاستترت به من وابل المطر . ولبثت أرقب المارة وأنا شارد الفكر مضعضع الحواس حتى انقطعت خيوط الغيث و انقشعت الغيوم و بدت الشمس ببهائها فازدحمت الشوارع بالسابلة ومعظمهم من الصبيان وهم يسيرون أفواجا افواجا حاملين اللعب المختلفة يتلاهون بها . وقد أسبغوا على أجسادهم حللا جديدة زاهية الالوان . وركب بعضهم العربات و السيارات وهم يغنون و يصفقون . فسألت صبياً يماثلني حالة عن خطب هؤلاء فاجابني بانهم يحتفلون بعيد الفطر .

ومر بي فوج منهم يا كلون الحلوي والكعك فمددت يدي اليهم مستجدياً لان الجوع أخذ يقرس معدتي فكنت أسكن أنينها بضغط يدي . فتفرسوا في وجهي الشاحب النحيل وقد رسمت فيه الاقذار و الدماء اخاديد . و تأملوا في عيني اللتان تشعان ببريق الحمى . و تطلعوا الى ثيابي المزق المبللة الملتصقة بجسمي دون أن تستر عورتي . ثم نظروا الى بعضهم هلعين وجلين وأطلقوا سيقانهم للريح كأنهم سرب غزلان تفرمن وحش مفترس . فرفعت بصري الى السماء دون أن أدرك بعد أن هنالك إلهاً مهيمناً على العالم وانزلته الى الارض و أنا أشعر باجحاف وظلم لا أحيط باسبابهما . لكن احساسي الذي تنبه في قبل أوانه اظهرني

على الضيم الذى نالنى والجور الذى حاق بى . فسألت نفسى لماذا يوجد صبيان فى رخاء العيش وليانه . يسارع اليهم الهناء و تكلأهم السعادة بعنايتها وتؤاتيهم الدنيا على رغائبهم . واخرون فى سنهم وقد تنكرت لهم الحياة . وتجهم لهم وجه الزمن فذاقوا من شقاء العيش و مرارة الوجود مايكاد يدك صرح هيا كلهم و يودى بحياتهم الغضة اليافعة ؟..

.. سؤال جهدت نفسى فى ادراكه فتضاءل دونه عقلى الصغير القاصر..

وكانت شوكة الجوع يشتد وخزها . وأنا أدافعها بالتاهى فى تصفح الوجوه واجالة الطرف فيما حولى فابصرت بإزائى حانة جلس فيها أناس من علية القوم الى موائد عليها كؤوس الخمر وأصناف المأكول يتنقلون به على الشراب . فزادت هذه الرؤية نار الطوى استعارا فى جوفى . فتفقدت جيبى مراراً على أجد فيه فتاتاً من كسرة الخبز التى أضعتها فى الحديقة تجاه عرين الكلب . لكنى لم أظفر بفتيتة واحدة لان جيبي كان مخرقاً كالمصفاة . لايستقر فيه شيء . فصحت عزمتى على التسلل الى الحانة عساي أصيب ما أمسك به رمقى . فسرت منزنحاً كالشارب لثمل . وتنقلت بين الموائد متطلعاً بشراهة الى ما استبقاه المحتسون فى الطباق من المآكل حتى اذا انتهيت الى مائدة قد نفد شرابها وفرغ الجالسون من أمرها وهموا بالانصراف . مددت يدي المرتجفة الى مارسب فى الصحون واسرعت الى فمى بما وصلت اليه . وأنا أزدرد دون مضغ . فانهال على الشاربون سباً وشتماً وضرباً ولكماً وانا غير مبال بالألم الوجيع . بل منصرف بكليتى إلى إلتقام ما تصيبه يدى حتى أقبل خدم الحانة فأخرجونى وهم يضربونى ، فما كدت اسير خطوات قليلة حتى اعترانى دوار شديد فتلمست طريقي متحاملا نفسى وسقطت في منعطف زقاق مغشياً على

مكثت على تلك الحالة برهة من الزمن لا أدرى مداها حتى أفقت مذعوراً على أصوات تناديني و أيد تحركنى . فظننت لاول وهلة ان العجوز توقظنى كعادتها فنهضت مسرعا خشية أن ينالنى أذاها إذا تباطأت . فشعرت بالآلام تقعدنى عن القيام . فتفرست فى الوجوه المحدقة بى وأنا خائف وجل فوجدتها وجوه صبيان من صنوى وشاكلتى . فثابهم رشة بالية وسحنهم

غبراء شاحبة . وأعمارهم مابين الخامسة والعاشرة . وهم مقبلون على بوجوههم فرحون بلقياى مستبشرون بما سيخصونني به أنا البائس المسكين مثلهم . إذ لا يعرف الفقر الا من ذاق جوفه ألم الجوع . وجسمه معرة العرى . وحياؤه مذلة السؤال . فجلسوا حيالى عند مابدا لهم عجزي عن النهوض . واستطلعوني أمرى . فقصصت عليهم تاريخ حياتى المفعم بالحوادث المؤلمة وهم مصغون إلى سامعون منى حتى استفرغت ماعندى فرثوا لحالى المماثل حالهم وطيبوا خاطرى وناولنى أحدهم برتقالة أكلتها بقشرها من فرط جوعى . وأرونى نقودا فضية وفيرة في جيب أكبرهم سناً وأكلاً شهياً ملفوفاً بورق . ثم حملونى إلى الصيدلية التى قصدتها صباحا فطردنى صاحبها فأعطوه ربع ريال وطلبوا منه تنبيهى وضمد جروحى فلبى الامر هاشاً باشاً وأنعشنى بكأس من الكونياك ممزوج بأدوية أخرى . وغسل إصاباتى وضمدها فانتعشت نفسى . ورددت إلى روحى . وقويت رجلاى على حملى . فسرت مع رفاقى الذين عزموا على إحياء العيد أسوة بسائر الاطفال المترفين فلئن أبت عليهم الانسانية طوعا أن تدخل السرور على قلوبهم في ذلك اليوم . فقد أخذوا منها قسرا - بطريق السرقة - ماساعدهم على نيل أمنيتهم وإدراك مرامهم . فانتحينا جانباً فى حديقة خربة لم يبق منها غير سور متهدم يحيط ببعض أشجار متفرقة هنا وهناك . فافترشنا الغبراء وبسطنا الطعام المؤلف من خبز وسمك مشوى وطعمية وحلاوى طحينية على سماط من ورق الموز وأكلنا هنيئاً وشربنا من حفر فى أرض الجنينة ملأى بماء المطر . ثم خلعوا على من ثيابهم ما كسانى بعض الشيء وسترمن عورتى وتمددنا على الارض ونمنا نوما هادئا حتى الاصيل

ولما أفقنا جلسنا حلقة نتسامر وقد سرى عنى ما كان بى فاقبلت بكليتى عليهم وأنامتن لهم مغبوط بصحبتهم . فعرضوا على مفارقة العجوز التى تسومنى العذاب الاليم والانضمام الى زمرتهم فهم يشتغلون لحساب شخص وان لم يكن أقل شراسة وأخف جشعاً من تلك لكنه أخف وطأة منها ، فكل منهم يدفع اليه جعلا معينا يتقاضاه الرجل مساء عند أوبتهم لكنهم عصبة الآن فاذا سولت له نفسه الشريرة أن يرهقهم من أمرهم عسرا كما كان يفعل ليكونن ذلك وبالا سريعا

عليه . لانهم ارتبطوا بروابط الاتفاق مع إحداث على نمطهم لكنهم أكبر منهم سناً قد تحرروا من ربقة تحتكريهم وأصبحوا يستغلون مواهبهم لانفسهم وهم ذوو سطوة و بأس فى عالم الاجرام فاذا ما انضممت اليهم رفه حالى و نعم بالى

فوقع كلامهم من نفسى ، و اجبتهم الى مايريدون وأنا جذل فرح وعشت معهم مقاسما إياهم ضراءهم اذ لم يك لهم سراء . لان تبدل المعيشة لم يبدل البؤس بل خفف من حدته . فالرجل كان جباراً عاتياً يبادرنا بالشر لاقل سبب لكنه لم يكن فى شراسة العجوز وقد كنا جمعاً . والظلم اذا عم سهل احتماله .

مكثت على ذلك شهراً حتى اذا كنت سائرا ذات ليلة استندى الا كف . وقد جمعت فى يومى عشرين قرشاً أبصرت بى العجوز فانقضت على انقضاض الباشق على العصفور وأمسكت بذراعى وأمعنت فى ضربا وهى تصيح وتولول فتكأكأ علينا الناس . فاخبرتهم بانى ابنها وقد كرهت المقام عندها رغما من عنايتها بى وعملها على تقويم اعوجاجى وهربت منذ زمن وهى تجد فى طلبى حتى عثرت على الآن . ثم أهوت بيدها الى جيبى فوقعت على الريال فدسته في عبها وجرتنى من ذراعى وهى توسعنى لكما وأنا لا أجرؤ على الممانعة حتى وصلنا الى غرفتها فطرحتنى أرضا وقبضت على عصا صائحة : الحمد لله الذي مكننى منك . وما برحت تضربنى حتى فقدت صوابى

ولما أفقت من غشيتى كان الظلام حالكا فى الغرفة فحاولت اختراق حجبه ببصرى لارى مكان العجوز فلم أستطع غير أنى سمعت غطيطا متسقاً فايقنت بانها نائمة و عزمت على الهرب و كانت الغرفة مبنية بالطين ومسقوفة بالقش وبابها لاقفل له و لا يغلق باحكام و هى بعيدة عن العمران فاذا ماخرجت منها وركضت لا يمكن للعجوز اللحاق بى ولا الاستنجاد بالجيران ، فسرت على أطراف أصابعى محاذرا الاتيان بحركة حتى اقتربت من الباب فالفيت العجوز مضطجعة على عتبته لتحول بينى وبين الخروج فنكصت على عقبى ولزمت مكانى وأنا حائر فى أمرى

وبينما أنا أتردد بين الاحجام والاقدام فتح الباب بتؤدة وحذر وبدا منه

شعاع قاتم صوب الى أنحاء الغرفة كلها حتى وقع على فانتصبت واقفاً وأسرعت الى مصدره متوسما فيه الفرج فقبضت يد قوية على ذراعى وسحبتنى خارجاً فانقدت اليها متخطياً العجوز فاستفاقت وحاولت الصراخ وطلب النجدة فانقض عليها شخصان وكما فمها وطرحاها على الارض وهى تتخبط لتتخلص من قبضتهما . فتركتها ثانياً عطفي عنها دون أن يصفو لها قلبي لما سامتنيه من الذل والجور . وأسرعت الخطى ممسكا بيد قائدى الذي شرع يطمئننى فعرفت فيه أحد الرفاق الكبار الذين يتولون الصغار منا برعايتهم ليميطوا عنهم أذى مستغليهم .

وللحال لحق بنا الاثنان اللذان صرعا العجوز وقالا لى بصوت أجش أنها لن تزعجنى فيما بعد . فدب الرعب فى قلبى لانى فهمت من لهجتهما أنهما قضيا عليها غير أن الشفقة لم تأخذنى عليها لما عالجته من البؤس والشقاء على يديها .

سرت مع الرفاق الكبار الذين نالهم التعس وحلت بهم نوازل المكروه بمقدار مابلغت الى . لكنهم لما اشتد ساعدهم التمسوا مايصلحون به حالهم دون أن يعزب عن فكرهم أشباههم الاطفال الذين يعانون كل ضروب العذابات والآلام . وحللت بدارهم حيث الفيت عدة أطفال فى سنى ومافوقه فاخبرنى أحدهم بأنه رآنى عند ماقادتنى العجوز فنقل أمرى الى أولئك فاغاثونى فعدت عندهم الى سيرتى الاولى . فكنت أجمع أعقاب السجاير وابيعها واستجدى واسرق ماتصل اليه يدى . حتى اذا دجى الليل وعدت الى مأواى در بونى وسائر الاطفال على نشل حافظات النقود من الجيوب . فاذا أعيانا أمر انسان واستعصت علينا سرقة حافظته عمدنا الى شق جيبه بمشرط واستولينا على مافيه .

وهذه الطريقة كانت فى بدء أمرها من أشق شىء عندى . فكانوا يملأون حلستا ماء وينشرون على سطحه ورقة طافية ويطلبون مناقطعها بمضع دون أن تغطس أو يبتل ظاهرها . فدأبت فى ذلك حتى قتلته مراساً ومعالجة . ولم يمض على ردح من الزمن حتى برعت فيه وبرزت سائر الاطفال .

كلفت بمهنة اللصوصية . وأولعت بالنشل لانه ينيلنى ماأصبو اليه من

الاضرار بالناس والانتقام من الانسانية التى بادأتنى بالشر حالما تفتقت عينى لنور الحياة . ومابرحت تناصبنى العداء . وتصلينى حرباً شعواء . حتى تأصلت راهيتها فى نفسى فاصبح لايلذلى غير مد يدالاذي الى الغير تشفياً وانتقاماً .

ومازلت على هذه الحالة و أنا كلما ازدادنى الزمن أزداد خبرة و دراية فى فن السرقة و أساليب النشل . فلم أترك مجهودا الا بذلته . ولاوسعاً الا استفرغته حتى صرت من أكثر اللصوص . و أوسعهم حيلة . وأشدهم جرأة .

و لكن ذلك لم يكن ليطفىء جمرة غلى و حقدى . لان تخفيف عبء الجيوب من المال مهما كثر لايهظ العواتق . ولايصيب الانسان فى صميم مشاعره فصح عزمى على مبادرته بالسوء فى جسمه . فلجأت الى القتل وسفك الدماء . فكنت أفتك بالناس و أنا ثابت الجنان . دون أن يختلج قلبى بعاطفة حنان . بل كنت أقبل على ذلك بلذة . مستطيباً حشرجة الغير ونزعهم . منتشياً من منظر دمائهم السائلة التى كانت تنزل على فؤادى برداً وسلاماً . حتى كنت أقتل لسبب تافه أو لغير سبب . فاذا مااشتدت و طأتى على مكان و ضج أهلوه بالشكوى ممانزل بهم رحلت الى غيره . حتى أثقل أمرى الحكومة و عجزت عن ايقافى عند حدي . ومنع اذاى وضرى . لانى كنت أفلت من الهواء لاأعلق فى حبالتها مهما أحكمت حبكها .

و قد نزلت بموضع ضاق سكانه ذرعاً بمنكراتى فتشاوروا فيما بينهم على الايقاع بى . فدريت بذلك وعزمت على الاقتصاص من المحرضين . فقصدت شطر عمدة البلد وهو الرئيس المدبر للخديعة بى والمكر . وكان جالسا على باب داره فى جمع من رجاله والمتزلفين اليه . فاقتربت منه بقدم ثابتة . فأوجس خيفة منى . لكنى لم امهله ليحتاط لنفسه . بل عاجلته برصاص مسدسى فخر صريعا فولى اتباعه يستطيرهم الخوف حتى لم يبق منهم احد . واقبل ابنا العمدة من الداخل على صوت الرصاص فاردتهما بيندقيتى قبل ان يصلا . واسرعت الى الجثث الثلاث فمثلت بها اشنع تمثيل تشفيا لما لحقنى من اذى الانسان . ثم عدت

ادراجي سائرا الهوينا كأني لم آت شيئا إدا . دون ان يجرأ احد على الاقتراب مني او اللحاق بي .

و يتبادر الى ذهن الناس ان القتلة لاضمير لهم يبكتهم على آثامهم . لكن هذا خطأ يذهب اليه من ياخذ الامور على علاتها . فكنت اذا ماخلوت الى نفسي شعرت بضمير ى الغافي يستيقظ من سباته . و يجهر بتاله من منكراتي وموبقاتي . فكنت ابين له ماحاق بي من الظلم منذ نشأتي حتى وقتي هذا . مبررا فعالي . محبذا اعمالي . فكان يتململ قليلا ثم يعود الى غفوته .

ولو اتيح لي من يعتني بي في صغري . انا وسائر الخارجين على الانسانية وربينا على قويم المبادىء وحميد الخصال لكنا ايادي عاملة في صرح الاجتماع لا ايادي مخربة . ولكن شاءت الاقدار ان تكون حياتي سلسلة شقاء تبتدىء من مهدي وتنتهي في لحدي .

وما زلت انتقل من جريمة الى اخرى . ومن اثم الى غيره . دون ان ترتوي نفسي من الدماء المراقة . بل كانت تتوق دائما الى التمادي في غي والاصرار في ضلالي . حتى سطوت ذات ليلة على منزل لا بقصد السرقة . بل طلبا للقتل . ففتكت بسكانه الستة . فقبض علي فاقررت بفعلتي واطلعت المحققين على ماجنيته في حياتي وطلبت من القضاة التعجيل بالحكم علي لا تخلص من دنيا لم تدر لي غير التعاسة و الشقاء .

هذا هو تاريخ حياتي المفعم على قصره بالحوادث الجسام .. ان مروعاته ليست وقفا على وحدي . بل هي نفس مايصيب كلا من هؤلاء الصبيان الذين ابصرناهم حول صندوق النفايات . و الذين يملاون الازقة والطرقات . انقلب يتقطع حسرة عليهم لما يخبؤه لهم الزمن من الرزايا والخطوب .. فطالما يوجد آباء لاقلوب لهم وامهات قد تجردن من كل عطف وحنان . وحكومة لاتبالي بمن نبذتهم الانسانية من شعبها فسيبقى هؤلاء الصبية مصدر شر و وبال على سواهم وعلى انفسهم . فيقاسون في حياتهم من العذابات والآلام مالا يحتمله قلب بشر دون أن يجدوا من يكفكف لهم دمعة . او يخفف لهم لوعة .

جورجي نيقولاوس